حقوق الطبع محفوظة لدار النابغة

دار النابغة : سورية - حمص : هـ ٣٨٢٥٢ - ٣٥٠٤٢
دمشق : ص.ب ٣١٨٧٢
دار القادري بيروت - ص.ب ١١٣/٥٥٨٧

Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Araştırmaları Merkezi
Kütüphanesi

أحوال الناس

وذكر الخاسرين والرابحين منهم

ويليه

الفرق بين الإيمان والإسلام و فوائد البلوى والمحن

لسلطان العلماء العز بن عبد السلام

Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Araştırmaları Merkezi
Kütüphanesi
Demirbaş No: 130964
Tasnif No: 297.85 ABD.A

راجعه وعلق عليه
عبد الرحيم أحمد محمد

قدم له
الأستاذ عبد الحكيم بجلاق
مفتش التربية الدينية في مدينة حمص

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

- ربِّ أَوزعني أَنْ أشكر نِعْمتك التي أَنْعمتَ عليَّ وعلى والديَّ وأَنْ أَعْمَل صالحاً تَرْضاه وأَدْخِلْني برحْمتك في عبادِكَ الصَّالحين.
- إلى رسول الإنسانية، إلى نبيِّ اللّه، إلى من هو أغلى على النفس من النفس،
- إلى حبيبي محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم.
- إلى والديَّ الغاليين، ومن أوصاني ربِّي أَنْ أخفض لهما جناح الذلِّ من الرَّحمة، و أن أدعو لهما بالرحمة والمغفرة كما ربيَّاني صغيرا.
- إلى إخوتي في اللّه.
- إلى كلِّ من يبغي الخير لعباد الله.
- إلى إخوة لنا يجاهدون لاسترجاع مَسْرى رسولنا، وأولى قبلتَينا.
- إلى العلماء العاملين المخلصين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وعظمته ومنّه وفضله على الخلائق جميعاً. خلق الكون فقدر وهدى. قدر لكل ظاهرة من ظواهره قانونها الذي لاتحيد عنه، وهداها للسير ضمن ناموسها لتتحقق الحكمة البالغة من وجودها. ربط مابين هذه الظواهر الكونية المتعددة برباط محكم يدل على وحدة الخالق المبدع، فكانت تلك القوانين هدىً لظواهر الكون بعينها ونوراً للإنسان يكتشف طريقة الإبداع الإلهي فتتوسع مداركه ومعارفه وتتعدد خبراته فيسخر مظاهر الكون كلها ومن خلال تلك القوانين لما فيه مصلحته ونفعه وتحقيق السعادة له في عيشه. وليس التقدم العلمي الذي يحوزه الإنسان سوى نتيجة لاكتشافه لهذه القوانين ومحاكاته لها باختراع مايسهل له العيش الرغيد على هذه المعمورة من وسائل ليست إلا صدى لقوانين الكون المنثورة أمام ناظريه ﴿اللَّهُ نُوْرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فيْها مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ في زُجَاجَةٍ. الزُجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوْقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاشَرْقِيَّةٍ ولاغَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءْ﴾.

وإذا كان الله جل وعلا أبدع أيما إبداع في خلق الكون وتنظيمه فإن رعايته للإنسان الذي هو أهم وأعظم ظاهرة في الكون كانت أجل وأعظم، فإن مانراه من قوانين هائلة في العدد والدقة في مظاهر الكون كله قد جمعها الله كلها في هذا المخلوق العظيم ليكون بدروه من حيث الحجم هو الكون الصغير، ومن حيث المعنى والحقيقة أهم وأعظم من الكون كله لأن الله أودع فيه ماليس

موجوداً في غيره، أودع فيه العقل ومنحه جل وعلا من صفاته فكان كما قال الله تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ في أَحْسَنِ تَقْويم﴾.

ولم تقتصر رعاية الله تعالى لهذا المخلوق على دقة الخلق فحسب ولكنها شملت حياته التي يحياها على الأرض فأنزل له منهجاً ربانياً ودستوراً سماوياً يعصمه من الزلل والخطأ ويهديه لما يحقق مصلحته في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ هَذا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

فكما أن عظمة الله تتجلى في دقة الخلق، خلق الكائنات جميعاً فهي تتجلى كذلك أكثر وأعظم في هذا التشريع الإلهي المحكم الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، وإذا كان علماء الطبيعة بُهِرُوا أمام عظمة الكون، فإن علماء الشريعة خروا سجداً أمام عظمة القرآن الكريم الذي يفسر لهم حقيقة الوجود وفكر الكون ويعطيهم معايير الحق لفهم كل شيء بحق.

والعلماء هم أقدر الناس على إدراك عظمة الله بما أوتوا من بصيرة تتكشف لديهم بها مظاهر هذه العظمة فيكونوا بذلك أشد إيماناً بالله وأكثر خشية منه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾ ولكن لما كانت طاقة الإنسان محدودة لاقدرة لها على الإحاطة بكل جوانب العظمة الإلهية فإن الله كشف عن بصيرة كل عالم في مضمار معين من جوانب هذه العظمة تتكشف له من خلالها أمور هي لغيره على درجة من الخفاء. فمنهم من برع في اكتشاف الذرة ومنهم من برع في الفلك وأخرون في علم الطب... وهكذا... ومن مجموع ماتوصل إليه كل في اختصاصه ندرك العظمة الإلهية بشكل أوسع. واختصاص كل عالم في مضمار معين لايقف حائلاً أمام إدراكه وحدة النظام التي تربط بين الاختصاصات كلها فيكون الكون لوحة فنية رائعة متناسقة لانشاذ فيها.

وعلماء الشريعة شأنهم شأن علماء الكون كشف الله عن بصيرة كل واحد منهم جانباً من جوانب الشريعة تنكشف لديه حقائق الشريعة فيما اختص به فمنهم من برع في تفسير كتاب الله ومنهم من برع في علوم السنه وآخرون في أصول الفقه واستنباط الأحكام.. وهكذا..

ونحن من مجموع ماتوصلوا إليه جميعاً ندرك العظمة الإلهية في هذا الدين القويم المحكم والذي يحقق الإنسان من خلاله سعادة الدارين الدنيا والآخرة.

عالمان جليلان هما الإمام الشاطبي والعز بن عبد السلام كشف الله عن بصيرتهما فبرعا وبشكل منقطع النظير في مضمار كشف أسرار الشريعة الإسلامية ومقاصدها العامة وذلك من خلال الفهم العميق لأحكامها الفرعية والجزئية وصولاً إلى المقاصد العامة التي يندرج في كل مقصد منها أحكام فرعية كثيرة محققة لهذا المقصد. وبشكل آخر تعرف هذان العالمان البنية الهيكلية للشريعة الإسلامية التي تنطلق من أساس تشريعي واحد هو تحقيق مصالح الناس في الدارين، وبالتالي تكشفت لديهما تلك المصالح العامة (المقاصد العامة) كل مصلحة ينطلق منها أسس، ومن كل أساس تنطلق فروع، ومن كل فرع تنطلق جزئيات، وهذه الفروع والجزئيات تختلف قوة بمقدار ماتكون أشد تحقيقاً لتلك المقاصد، مما جعل أحكام الشريعة تندرج في ثلاثة أطر الضروريات والحاجيات والكماليات، ونحن لانعني بهذه القوة الفرض والواجب والسنة، إنما نعني تقديم الضروري على الحاجي حين التعارض والحاجي على الكمالي إذا تعارضا، فإن بعضاً من الكماليات يأخذ حكم الفرض كستر العورة مثلاً رغم أنه كمالي بالنسبة لمقصد الحفاظ على العرض.

والعز بن عبد السلام في كتابه قواعد الأحكام حلق كثيراً في فهم دقة التشريع الإسلامي القائم على جلب المصالح ودرء المفاسد في الدارين بشكل لم يسبقه أحد في هذا المضمار ومن خلال دراسة هذا الكتاب ندرك فكر التشريع وفلسفته وعمقه وانسجامه مع قواعده الأساسية فنخر سجداً لله طائعين محبين لجلال وجهه الكريم.

ونحن إذا أبرزنا هذين العالمين الجليلين فما ذلك إلا في مضمار مأأبدعا فيه من اختصاص ولربما بلغ شأوهما غيرهم من علماء هذه الأمة ولكن في جوانب أخرى من جوانب التشريع الإسلامي كعلم الفقه وعلم الأصول. وعلم الحديث وغير ذلك من العلوم.

وتقديمنا لرسائل الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام هذه يتناول النقاط الوضاءة التي تحتاج إلى بعض الشرح للقارىء العادي لما لهذه النقاط من أهمية كبيرة، كما يتناول التنويه إلى دور هذه النقاط في معرفة البنية الهيكلية للشريعة الإسلامية هذه البنية التي أحكمها الله ومافرط فيها من شيء.

الإنسان بطبعه وفطرته يسعى نحو الربح ويتجنب مزالق الخسارة وأسبابها، ولكن المهم بالنسبة للإنسان أن تكون معاييره للربح والخسارة واضحة ودقيقة كي يصل من خلال هذه المعايير إلى الربح الحقيقي ويتجنب الخسارة الحقيقية، فكثير من الناس قد اختلّت لديهم هذه المعايير فالتبث لديهم الأمر فاعتقدوا الربح في أمر حقيقته خسارة، واعتقدوا الخسارة في أمر آخر حقيقته الربح نتيجة لهذا الاختلال في المعايير، من أجل هذا بدأ الشيخ الجليل بتوضيح منهجية المعايير فاعتبر الوحيَ، القرآنَ الكريمَ، والسنةَالصحيحةَ، مصدراً وحيداً لمعايير الربح ومعايير الخسارة، فإن وافق سعي الإنسان مأأمر الله به كان رابحاً، وإن

خالف كان خاسراً . إلا أن استنباط هذه المعايير من القرآن والسنة أمر يشق على كثير من الناس لذلك حرص المؤلف رحمه الله وبالبصيرة النافذة والعلم العميق والإخلاص في الجهد أن يأخذ بيد الناس إلى معرفة هذه المعايير فصاغها بأسلوب جلي بعيد عن التعقيد.

بدأ المؤلف رسالته ببيان أفضلية الرسل والصالحين على الملائكة معتمداً بذلك على ثلاثة أمور: تعريف الله آدم أسماء الأشياء وخصائصها دون الملائكة. أمر الله تعالى الملائكة بالسجود في جنته لم يعط لغيره وفي ذلك دليل على أفضليتهم. والمؤلف قصد من بيان هذا التفضيل حث الإنسان على أن يحتفظ بهذه المكانة العلية التي منحها الله له وذلك من خلال الطاعة الدائمة والإخلاص في العمل والعبودية المطلقة لله تعالى، فمما هو معروف أن الصالحين من عباده لهم مقام قريب من مقام الرسل الكرام.

ثم عرج على بيان معيار الأفضلية بين الدنيا والآخرة فأبرز لنا أن الدنيا دار الزوال وهي جسر نعبر عليه لدار الآخرة التي هي الغاية والتي هي دار البقاء، ونعيم الدنيا مشوب بالتكدر والتعب بينما نعيم الآخرة خالص من كل شائبة. فما دام الحال هكذا فلزاماً على الإنسان ألا يغتر بنعيم الدنيا فيغفل عن نعيم الآخرة، فيكون من الخاسرين.

ثم قارن لنا بين نوعين من أنواع النعيم في الآخرة، النوع الأول نعيم روحاني كالأنس والرضا والنظر إلى وجهه الكريم تعالى، والنوع الثاني الذي هو الطيبات الخالية من كل هم وغم وتعب، فإن الأول لايناله إلا المحسنون والثاني يناله الطائعون العابدون. وغاية مافي هذا التفريق شحذ الهمم والطاقات من أن تسعى نحو ماهو أفضل وهو النوع الأول وذلك بالطاعة الخالصة لله تعالى لامن أجل